٢

مع آية البر

تحدث القرآن الكريم عن القيم الدينية فى آية جامعة ، هى آية البر ، حيث قال تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[١].

---

(١) الآية ١٧٧ سورة البقرة .

إنها قيم ومبادئ ما استقرت فى مجتمع إلا كفلت له القوة والعزة ، وحققت التكافل والتراحم بين أفراده . وأقامت علاقته بغيره من المجتمعات على أسس العدل والتعاون والسلام .

وهذه الآية الكريمة تبدأ فتجرد البر من المفهوم الشكلى عند بعض الناس وبعض الأمم ، أولئك الذين يتعلقون فى عبادتهم ومعاملاتهم بالمظاهر ، دون التعمق فيما وراء ذلك من أهداف ، وما يقوم عليه الدين فى حقيقته من تكوين العقيدة السليمة وتربية السلوك القويم . ولذلك يقول الله تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) .

وذلك فى شأن القبلة التى يتجه إليها الناس فى الصلاة ، على اختلاف دياناتهم وعقائدهم ، ولكن البر أعمق من ذلك وأبعد غاية . . إنه العقيدة الجامعة ، والسلوك الذى يترجم هذه العقيدة إلى أعمال صالحة لخير الفرد والمجتمع .

وكان اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، ينكرون على المسلمين ذلك ويقول الله على لسانهم :

(مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ؟) .

فيقول الله تعالى لرسوله :

(قل لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] .

---

(١) الآية ١٤٢ سورة البقرة .

أما البر فهو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . أن تؤمن بالله الخالق المدبر الحكيم العليم . فترتبط بمبدع الوجود الذى خلقك فسواك فعدلك ، والذى يحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، والذى وسعت رحمته كل شىء ، وهو على كل شىء قدير .

فمن يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . ومن كفر بالله أو أشرك به فقد تنكر لفطرته ، وكان صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعَّد فى السماء ، يمزقه الصراع والضياع وإن ملك الدنيا بين يديه .

* * *

والبر أن تؤمن باليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء على ما قدمت فى هذه الحياة :

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا)[1] .

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[2] .

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا)[3] .

---

(١) الآية ٣٠ سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٨٨ و ٨٩ سورة الشعراء .

(٣) الآية ٤٠ سورة النبأ .

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] .

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[2] .

ويقول الله – تبارك وتعالى – فى شأن الحياة الدنيا والآخرة :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟)[3] .

إن الإيمان باليوم الآخر هو الذى يجعل للحياة الدنيا قصداً وغاية ، وهو الذى يؤكد قانون الثواب والعقاب ، وبذلك تجرى الحياة على مبادئ مقررة ونواميس ثابتة ، تنظم حياة الإنسان ومسيرته فى دنياه ، وتحدد علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وتجعله مشدوداً فى ذلك إلى هدفه البعيد ، لا يعيش عبد اللحظة العابرة ، ولا يحجبه عن حقائق غده ضباب يومه ، وبذلك يسمو على واقعه ، ويتحرر من أغلال الضرورة ، ويكون مسيطراً على الحياة لا مستعبَداً لها ، مؤثراً فيها بما يجمّل وجه الحياة ويدفعها إلى طريق الخير والرشاد ، وينأى عن طريق الغى والظلم والفساد ، مؤمناً أن مقامه فى هذه الحياة الدنيا مرحلة من مراحل حياته التى بدأها

---

(١) الآية ٢٤ سورة النور .

(٢) الآية ١٢ سورة الحديد .

(٣) الآية ١١٥ سورة المؤمنون .

وهو جنين فى بطن أمه ، حيث كان يعيش هناك تسعة أشهر من عمره ، ينتقل بعدها إلى مرحلة أخرى فى هذه الحياة الدنيا ، فمنهم من يتوفى طفلا أو شابًا ، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر حتى يستوفى أجله المقدور على هذه الأرض ، ثم ينتقل إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا حتى يبلغ الدار الآخرة ليجد هنالك كل ما عمل من خير أو شر محضرًا ، حيث نجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

وفى الربط بين الحياة الدنيا والآخرة يقول الله تبارك وتعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[1] .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)[2] .

° ° °

وتتحدث آية البر عن الإيمان بالملائكة ، وهم – كما وصفهم القرآن – قوم مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

إنهم حملة وحيه إلى أنبيائه ورسله :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)[3] . .

وقد ينزل الملائكة فى صورة بشرية يعلمون الناس دينهم .

---

(١) الآية ٨٣ سورة القصص .

(٢) الآية ١٩ سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢ سورة النحل .

قال عبد الله بن عمر : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال : صدقت .

قال عمر : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه !

قال : فأخبرني عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت ، أخبرني عن الإحسان .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وبعد أن سأله عن الساعة وأماراتها ، قال عمر – رضي الله – ثم انطلق . . . فلبثتُ مليًّا ، ثم قال لي رسول الله ﷺ :

– « يا عمر ، أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

والملائكة جند الله ينصر بهم عباده المؤمنين ، ويثبت بهم قلوب المجاهدين .

يقول الله تعالى :

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) [1] .

(إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [2] .

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) [3] .

إنهم قوى يسخرها الله لنصر عباده المؤمنين ، حين يصدقون مع أنفسهم ومع الله ، يدعونه فيستجيب لهم ، وينزل الملائكة لتقاتل فى صفوفهم ، ويعدهم – مع الصبر والتقوى – بالبشرى والطمأنينة والتثبيت والنصر المبين . . .

° ° °

---

(١) الآية ٩ سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٢ سورة الأنفال .

(٣) الآيات من ١٢٣ إلى ١٢٦ سورة آل عمران .

ثم الإيمان بالكتاب والنبيين . . بالتوراة والإنجيل والقرآن ، بجميع الرسل والأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم . . إنهم مصابيح الإنسانية الهادية على تعاقب العصور والأجيال . والإيمان بهم جميعًا مظهر من مظاهر الوحدة التى تجمع الإنسانية على كلمة سواء.

يقول الله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وعيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)[1] .

ذلك لأن الدين واحد فى جوهره وإن اختلفت الشرائع باختلاف الأزمنة والعصور . ووحدة الدين تتمثل فى الإيمان بالله ، وفيما جاء به الرسل من مبادئ عامة لخير الإنسانية جمعاء .

والقرآن الكريم حين يقول : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ)[2] .

إنما يقرر حقيقة تاريخية على ألسنة جميع الرسل والأنبياء منذ عهد إبراهيم إلى عهد عيسى عليهما السلام .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ)[3] .

---

(١) الآية ١٣ سورة الشورى .

(٢) الآية ١٩ سورة آل عمران .

(٣) الآيتان ١٢٧ و ١٢٨ سورة البقرة .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] .

وقال الله تعالى على لسان سليمان : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)[2] .

وقال تعالى على لسان يوسف : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[3] .

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[4] .

آيات كثيرة تجمع على الإسلام جميع الرسل والأنبياء والمؤمنين بهم من أقوامهم :

---

(١) الآية ١٣٢ سورة البقرة .

(٢) الآية ٤٢ سورة النمل .

(٣) الآية ١٠١ سورة يوسف .

(٤) الآية ٥٢ سورة آل عمران .

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)[1] .

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)[2] .

وفى الدعوة إلى وحدة العقيدة - وهى رسالة الإسلام العالمية - يقول القرآن الكريم :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[3] .

* * *

بقى من القيم الدينية التى تضمنتها آية البر ، والتى نعرضها فى إجمال ، أن تؤدى حق الله فيما استخلفك فيه من مال ، ذلك أن المال مال الله ، وقد وضعه الله فى يدك لتنفقه فى مصارفه المشروعة ، تعميرًا وجهادًا فى سبيل الله ، وقد نظم الإسلام ذلك فى مبادئه وفى تطبيقاته على صورة ليس لها مثيل فى ظل أى تشريع أو تنظيم اجتماعى آخر ، لأنه جعل مناط الأمر إلى إيمان المرء وإيثاره ، لا إلى قانون بفرض ورقيب يحاسب ، وهو حين فرض الزكاة بقانون جعلها الحد الأدنى للإنفاق فى سبيل المصلحة العامة للأمة ، ولذلك حارب أبو بكر - رضى الله عنه - لأول

---

(١) الآية ١٢٥ سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ سورة لقمان .

(٣) الآية ٦٤ سورة آل عمران .

عهده بالخلافة مانعى الزكاة من المسلمين ، وقاتلهم عليها قتال المرتدين عن الإسلام .

أما ما وراء الزكاة المفروضة من الإنفاق فى مختلف وجوه البر ، فإن القرآن الكريم تضمن عديداً من الآيات فى الحث على ذلك وتحبيب المؤمنين فى إيثار ما يبقى من أثر العمل الصالح على ما لا يبقى من المال وعرض الحياة ، ووعدهم بمضاعفة الأجر والثواب فى الدنيا والآخرة أضعافاً مضاعفة ، ومن ذلك قوله تعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[1] .

ومن وجوه البر التى حث الإسلام على الإنفاق فيها أن تنفق من مالك ما تبرُّ به أقرباءك ، وتواسى به اليتامى والمساكين ، وتعين به ابن السبيل الذى انقطعت عنه موارده ، وتجيب به دعوة السائل المحتاج ، وتفتدى به الأسرى ، وتحرر به الرقاب من أغلال الذل والعبودية ، تفعل ذلك مؤثرا مرضاة الله على حب المال الذى هو طبيعة فى النفس . يقول الله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)[2] .

وأنكر الإسلام على من يحبسون المال عن مصارفه أيما إنكار ، وتوعدهم بسوء المنقلب وأشد العذاب :

---

(١) الآية ٢٦١ سورة البقرة .

(٢) الآية ٩٢ سورة آل عمران .

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (١) .

ومن خصال البر كذلك إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر عند نزول المحن ومواجهة الشدائد وفى لقاء العدو ، خصال لا يلتزمها إلا بَرٌّ مؤمن صادق الإيمان قوى الإرادة ، عظيم التكريم والجزاء :

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (٢) .

وتحدث الرسول ﷺ عن البر فقال :

« البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهتَ أن يطلع عليه الناس » .

وكما أن البر جمع من الخصال ما تكمل به أهلية الإنسان ، وما يكفل له السعادة فى دينه ودنياه وآخرته ، فإن الإثم على نقيض البر فى صفته وآثاره . فما من خصلة طيبة من خصال البر يتركها الإنسان إلى نقيضها إلا كان آثمًا قلبه ، مذنبة

---

(١) الآيتان ٣٤ و ٣٥ سورة التوبة .

(٢) الآيات من ٢٢ إلى ٢٦ سورة المطففين .

جوارحه ، منحرفًا عن الحق إلى الباطل ، ومن الهدى إلى الضلال . وبذلك يهدر إنسانيته ، ويذل كرامته ، ويخون أمانته ، ويصبح وبالا على نفسه وعلى الناس .

ولقد يشتبه على الإنسان أمر ، أو يزين له الشيطان وقرناء السوء اقتراف الإثم فى لحظة من لحظات الضعف ، أو خضوعًا لوسائل الفتنة والإغراء ، فيختلط عليه الحق والباطل ، ويقع فى حيرة بين الهدى والضلال ، وتختل أمامه الموازين والمقاييس . فماذا يفعل ليبدد ضباب الحيرة ويهتدى إلى وجه الحق والصواب ؟ .

هنا يضع الرسول ﷺ فى يدك مفتاح الموقف ، ويضىء لك الطريق بكلمات قصار حين يقول : « الإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . ذلك أن الحلال بين والحرام بين ، ثم إن الذى يقع فى الإثم أو يخالف قوانين المجتمع يدرك تمامًا أنه مخطئ ، وهو يرتكب ذلك فى غفلة عن الأعين ، متدثرًا بالظلام والاستخفاء ، حريصًا على ألا يراه أحد وهو يرتكب الجريمة ويقع فى الإثم .

وحسب الإنسان أن يستشعر ذلك الإحساس حين يهم بأمر من هذه الأمور لينجو بنفسه من الوقوع فيه ، ويجنب نفسه عقاب المجتمع أو عذاب الضمير .

٣

لماذا نؤمن بالغيب ؟

الإيمان بالغيب من القيم الدينية التى تقوم عليها العقيدة ، ويرتبط بها فكرُ الإنسان وسلوكه فى هذه الحياة . بل إن الإيمان بالغيب هو أساس العقيدة الدينية ، لأنه إيمان بما جاء به الوحى الإلهى ، ونطق به الرسول الصادق المعصوم ، وأساسُ العقيدة الدينية هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فأنت تؤمن بالله دون أن تراه .

وتؤمن بالملائكة وهم خلق غير مَرْئى .

وتؤمن بالرسل عن طريق مايذكره القرآن الكريم من أنباء الغيب .

وتؤمن بالكتب المقدسة وحيًا من عند الله لهداية البشر .

وتؤمن باليوم الآخر ، حيث البعث والنشور ، وحيث الجزاء الحق على ماقدمت فى هذه الحياة .

والإيمان بالغيب كان – ومايزال – أصلا من أصول الفطرة الإنسانية منذ درج الإنسان فى مهد الوجود ، حتى بلغ مابلغه من تجارب العلم والكشف عن بعض مجاهل الكون والحياة .

فقد كان الايمان بالغيب فى مدارج الإنسانية الأولى نابعًا من التركيب الفطرى لملكات الإنسان وغرائزه فى تطلعه إلى ماوراء المظاهر المادية من أسرار ، وماوراء الظواهر الكونية من غيوب . توجهه فى هذا التطلع رسالاتُ السماء ، بما تقص عليه من أنباء الغيب ، وماتثير فى نفسه من أشواق التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، فلما قطع العقل البشرى أشواطًا فى تصور حقائق الكون والحياة ، وكشفت له التجاربُ العلمية آفاقًا كثيرة كانت من الغيب المحجوب ، اكتسبت عقيدة الإيمان بالغيب مصادر أخرى غير مصدر الملكات والغرائز والوحى الإلهى ، هى مصادر العلم التجريبى بما وصل إليه من كشوف فى مجال النفس البشرية ومجالات الكون والحياة ، ومعرفة الحدود التى تقوم عليها الصلة بين الإنسان ومايحيط به من عوالم الحس ومناطق الغيب فى الزمان والمكان .

على أن البشرية لم تخل فى مختلف العصور وعلى تعاقب الأجيال من أناس ينكرون الغيب ولايؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس . كان كذلك بنو إسرائيل الذين أظلمت قلوبهم وسيطرت المادة على حياتهم وتفكيرهم ، وبلغ بهم الأمر فى شأن العقيدة الدينية أن قالوا لنبيهم موسى :

(لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً !)[1] .

وإذا جازت هذه « المادية » الغليظة فى العصور الغابرة التى كان الفكر الإنسانى يَقْصُرُ خلالها عن تصور الحقائق الدينية العليا ، ولايستطيع فى حركته وتصوراته أن

---

(١) الآية ٥٥ سورة البقرة .

يتحرر من قيود الحواس وأغلال المادة ، أو فى عصور « المراهقة » العقلية التى كان الفكر الإنسانى مفتونًا خلالها بما كشفت عنه تجاربه الأولى من حقائق علمية تختلف أو تتناقض مع ماورثه من تصورات دينية وتفسيرات للظواهر الكونية كانت مثار خلاف عنيف فى أوربا بين رجال الكنيسة وعلماء الفلك والطبيعة .

إذا جازت هذه « المادية » فى تلك العصور ، فإن الأمر فى عصرنا هذا ، عصر الفتوحات العلمية والكشوف الكونية يختلف عن ذلك أشد الاختلاف ، بعد أن صار الإيمان بالغيب من القيم العلمية ، وصار العلم دليلا يؤيد وجود عالم الغيب ، أو على الأقل لاينكر وجود هذا العالم المحجوب ، وأصبحت هذه العقيدة مُنْطَلَقًا إلى كشف حجبه وارتياد مجاهله ، فى تواضع يقف بالإنسان وقدراته ووسائله العلمية المتاحة عند الحدود التى لايستطيع أن ينكر ماوراءها من الغيب المحجوب ، لمجرد أنه لايقع تحت حواسه أو لاتبلغه قدراته ووسائله العلمية المتاحة ، ذلك لأن عدم « وجدان » شىء لاينفى وجوده .. إذا احتكمنا إلى منطق العقل ومنطق العلم الذى يكشف كل يوم جديدًا فى عالم الغيب المحجوب . ومازالت أمامه أشواط بعيدة وآفاق واسعة يحاول أن يجد لديها تفسيرًا لكثير من أسرار الحياة والوجود .

إن الحواسَّ الخمس المعروفة ، وهى اللمس والنظر والشم والسمع والذوق ، لم تعُدْ وحدها هى الحواس التى تعكس للإنسان حقيقة ماحوله من الأشياء ، فقد عرف العلم الحديث حواس أخرى منها مايسمى بالحاسة السادسة ، كما أثبت وجود ملكات نفسية تتجاوز آفاق الحواس المعروفة ، وتحطم الحواجز التى كانت تقف عندها هذه الحواس ، والتى كانت تبرر الزعم بأنه ليس وراء عالم الشهادة إلا العدم المطلق والتصور الخرافى العقيم .

ومع ذلك فلنقف قليلا عند هذه الحواس .. لنناقش فى ضوء ماكشفه العلم

قيمة هذه الحواس فى التعرف على حقيقة « الماديات » التى تقع تحت إدراكها ونضرب مثلا لذلك بالأذن ...

هل نستطيع أن نقول إن كل مالا تسمعه الأذن - وهى الأداة الوحيدة للسمع - يعتبر غير موجود ؟

الجواب عن ذلك بمنطق العلم الحديث : لا . إن هناك من الأصوات « الموجودة » مالا تسمعه الأذن ، وهنا يسقط منطق من لايؤمن بالغيب المحجوب عن سمعه اعتمادًا على أن أذنه لاتسمع هذا الغيب « المزعوم » .

ذلك لأن الأذن لها حساسية خاصة للأصوات التى تقع تَرَدُّدَاتها فيما بين ألف وثلاثة آلاف ذبذبة فى الثانية . وإذن فهى لاتسمع الموجات الصوتية التى يطلق عليها « تحت السمعيات » ولا الموجات الصوتية التى يطلق عليها « فوق السمعيات » . ويعتبر عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة من النعم العظيمة التى يتمتع بها الإنسان ، فهى تحول دون سماعه لضربات قلبه ، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لاينقطع[1] !

فماذا تعنى هذه الحقيقة التى كشف عنها العلم الحديث ؟

تعنى أن فى الوجود تموجات صوتية لاتسمعها الأذن بتركيبها « العادى » وأن ذلك لايمنع أن يسمع إنسان « ما » أصواتًا لايسمعها غيرهُ ، إذا اختلفت حساسية أذنه ، أو قدرتها على استقبال هذه الأصوات .

ومالنا نذهب بعيدًا ، وأمامنا الأمثلة « المادية » التى حققها العلم فى هذا المجال ، والتى تؤكد النظرية وتقرب الصورة للأذهان ؟

---

(١) كتاب « أصوات لا تسمع » تأليف ب . قدريا فستف . ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة .

إن « الراديو » يردد الأصوات البعيدة المرسلة من أقصى الأرض عندما تحرّك موشره نحو محطة من محطات الإرسال هناك . وإن « التليفزيون » ينقل إليك الصوت والصورة ، فهو يجمع بين عمل حاستين من الحواس : الأذن والعين ، على بُعد مصدر الصوت والصورة آلاف الأميال .

فهل بعد هذا نستطيع أن ننكر ، وباسم العلم ، وجود الصوت والصورة فى عالم الغيب ، بمجرد أن الأذن لاتسمع هذا الصوت ، وأن العين لاترى هذه الصورة فى عالم الشهادة ، عالم المادة المحسوسة بالآذان والعيون ؟

وقل مثل ذلك عن غيرهما من الحواس .

وهناك أمثلة كثيرة على حدوث « التَّلَقِّى » فى عالم الغيب ، كسماع الأصوات الصادرة من بُعْد بعيد ، ورؤية الصور التى تحجبها المسافات الطويلة ، وغير ذلك من القدرات الخاصة فى الاتصال بعالم الغيب المحجوب عن الحواس .

أمثلة كثيرة كانت موضع الإنكار من قبل ، وكان البعض يعتبرها من الظنون والأوهام ولكنها اليوم أصبحت موضع التصديق ، لأنها أصبحت فى حكم اليقين .

ونقف وقفة متأنية أمام عبارة سابقة تقول :

« إن عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة ، من النعم العظيمة التى يتمتع بها الإنسان ، فهى تحُولُ دون سماعه لضربات قلبه ، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لاينقطع » .

فماذا تعنى هذه العبارة مرة أخرى ؟

ماأيسر ، وماأخطَر الجواب !

إنها تقدم للإنسان « حقيقة » مادية تَجبُهُ [1] بها غرورَه وتَطلُّعَه إلى مالا يطيق

---

(١) تفاجئ ، تصدم .

من العلم . العلم اللانهائى للكون والحياة ، علم الغيب المحجوب عن الأسماع والأبصار وغيرها من ملكات النفس وسائر الحواس .

فلو قد كُشِفَ له كل مافى الكون من غيوب لَصُعِق !

بل إنه ليصعق حين يُكشف له أدنى قدر من هذه الغيوب لاطاقة لحواسه ولملكاته على استقباله . وهذا هو المثل الذى تتوارد معه آلاف الأمثلة ، تقدمه الحقيقة العلمية عن الأذن البشرية .

هى إذن نعمة كبرى يتمتع بها الإنسان ، حين يلتزم حدوده التى أحاطته بها العناية الإلهية ، وليست « نقيصة » فيه يحاول التمرد عليها بالكفر والإنكار .

وإنما اختص الله وحده بعلم الغيب ، لأنه الحقيقة الكبرى المحيطة بكل ما فى الوجود .

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُول) [1] .

وحتى هؤلاء الرسل لهم طاقة محدودة للاستقبال ، ومحيط معين للمشاهد الغيبية ، إن بدا لأحدهم أن يتجاوزه صعق !

وهذا ماحدث لموسى عليه السلام ، حين جاء لميقات ربه وكلمه الله .

(قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ

---

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة الجن .

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)[1] .

هذا عن الحواس المعروفة ومداها المحدود فى إدراك حقائق الوجود ، وعن الملكات النفسية فى إمكان تجاوزها حدود الزمان والمكان .

فماذا عن « المادة » التى يتكون منها عالم الشهادة ، والتى لايؤمن البعض إلا بها ويكفرون بما وراءها من غيوب ؟

هذه المادة التى تبدو فى صورتها الصلبة أو السائلة ، الحية أو الجامدة ، المضيئة أو المظلمة .. ليست فى حقيقتها العلمية إلا « طاقة » تتشكل وفقًا لقوانين معينة فى التركيب والسرعة تعطى كل كائن شكله المادى .

هذه المادة التى تتكون منها جميع المحسوسات ... الأرض وماعليها من جبال ومحيطات وأنهار ، ومافى باطنها من معادن ، ومايعمرها من إنسان وحيوان ونبات ، ومأأنتجته جهود البشر من عمارة وصناعات . ثم هذه الأجرام السماوية ومافيها من شموس وأقمار ومذنبات ونجوم .

ماذا بقى إذن مما يقال إنه عالم « المادة » أو عالم الواقع المحسوس ؟

بقى ماوراء هذه المادة ، أو على الأصح ماوراء هذه الطاقة .

بقى الغيب المحجوب الذى يقف العلم على شاطئه وهو حائر مشدوه . إنه يستطيع أن يحلل ويعلل الظواهر ، ولكنه عاجز كل العجز عن إدراك ماوراء هذه الظواهر من حقائق تتحدى العقول .

وهذا « آينشتين » أعلم علماء الأرض فى الكون وظواهره ، يتحدث فى تواضع العلماء عن شعوره أمام هذه الغيوب فيقول :

« إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التى تستشعرها النفس

---

(١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .

عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى .. إن الذى لاتجيش نفسه لهذا ولاتتحرك عاطفته ، حيٌّ كَميّت .. إنه خفاء لانستطيع أن نشق حجبه ، وإظلام لانستطيع أن نُطلع فجره ؛ ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئًا هو الحكمة .. أحكم ماتكون ، ونحس أن وراءه شيئًا هو الجمال .. أجمل مايكون وهى حكمة . لاتستطيع أن تدركها عقولنا القاصرة إلا فى صور بدائية أولية ، وهذا الإدراك للحكمة ، وهذا الإحساس بالجمال فى روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق »[1] .

ويقول ا . كريسى موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك :

« إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم ، لَتَدَعُ مجالاً للاعتقاد بوجود مدبّر جبار وراء ظواهر الطبيعة . وهذا ضوء يُلْقى على الخفاء الوسيع الذى يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهريًا ؛ وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام أسْمَى ، أى إلى وجود الخالق » .

ثم يعود فيقول :

« إن وجود الخالق ، تدل عليه تنظيمات لانهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ؛ إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .. وإنى لأورد قول « أوسبورن » فى هذا المجال : « بين جميع الأشياء التى لايمكن إدراكها فى الكون ، يقف الإنسان فى الطليعة ، وبين الأشياء التى لايمكن إدراكها فى الإنسان ، تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ ، وذكاء ، وذاكرة وآمال ، وقوة كشف وبحث ، وقدرة على تذليل العقبات »[2] .

---

(١) كتاب « مع الله فى السماء » تأليف الدكتور أحمد زكى .

(٢) كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكى .

وبعد : فهل مؤدى ذلك أن يقف الإنسان عاجزًا معطَّلاً أمام الغيب المحجوب فى الكون والحياة ؟ . .

كلا .. بل إن الأمر على العكس ..

إن الإيمان بالغيب هو مصدرُ النشاط العلمى للكشف عن كل مجهول ، وإلا عطَّل الإنسان مواهبه وملكاته ، وتوقَّف العلم عن تجاربه ومحاولاته التى تكشف له كل يوم عن جديد فى الكون والحياة .

يقول آينشتين :

« إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحثُ فى الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمى ، وأنبل حافز »[1] .

وفى الربط بين الدينِ والعلم يقول القرآن الكريم :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[2] .

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[3] .

(وَفى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ)[4] .

---

(١) كتاب « مع الله فى السماء » .

(٢) الآية ٢٨ سورة فاطر .

(٣) الآية ١٩١ سورة آل عمران .

(٤) الآيتان ٢٠ و ٢١ سورة الذاريات .

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىءٍ) (١) .

(سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (٢) .

... وآيات أخرى كثيرة تحث على التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وتثير فى العقل البشرى أشواقه إلى المعرفة ، وتدفع بالعلم لاستجلاء حقائق الوجود ، وتنعى على الذين عطلوا مواهبهم وملكاتهم وحواسهم ، تَجَرُّدَهم بذلك من مميزاتهم الإنسانية وهبوطَهم إلى مستوى البهائم .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِ والْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُون بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُن لاَيُبصِرُون بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُون بِهَا ، أُولَئِك كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِك هُمُ الْغَافِلُونَ) (٣) .

وهذه الغفلة عن الحقائق الكبرى ، وأولها الإيمان بالغيب ، وهو أساس الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وافتتان الإنسان بظواهر الطبيعة وإنكار البعض لما وراء هذه الظواهر فى نفسه وفى الكون ، هو الذى أوقع الإنسان فى

---

(١) الآية ١٨٥ سورة الأعراف

(٢) الآية ٥٣ سورة فصلت .

(٣) الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

مهاوى الحيرة والتخبط وأبعده عن فطرته السليمة ، وأضله عن حقائق وجوده وصلته بالكون والحياة .

وهكذا لايكون أمام الإنسانية لكى تبلغ غايتها فى ألفة عميقة مع الكون والحياة وفى توازن بين حقائق وجود الإنسان فى عالم الشهادة وعالم الغيب ، إلا بأن يكون الإنسان صادقًا مع قوانين فطرته ، هذه الفطرة التى تؤمن بالغيب حقيقة دينية وعلمية ، ترتفع بالإنسان عن « واقعه » المادى الذى يهدر إنسانيته ويقعد به عن الانطلاق إلى أهدافه البعيدة لتطوير هذا الواقع وترقيته إلى المستوى الذى يليق بمكانة الإنسان وكرامته فى الحياة ، وتحفز قدراته وأشواقه للكشف عن المجهول واستجلاء عالم الغيب . وهل يتجه الإنسان بعقله وعلمه إلى هذه الأهداف البعيدة إلا إذا كان مؤمنًا بأن وراء هذه الظواهر الكونية حقائق خالدة ؟

٤

وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟

وإن من الحقائق الواضحة فى مجال النشاط العلمى الحديث ، أنه قطع أشواطًا واسعةً فى علوم الطبيعة ، وحقق انتصارات كبيرة فى عوالم الذرة والفضاء ، واستطاع أن يُجرى تجارب فى زراعة أعضاء الجسم وأهمها زراعة القلب .

ولكن هذا النشاط العلمى الرائع فى مجال الطبيعة الكونية والتشريحية ، يقابله قصور واضح فى ميدان آخر لايقل أهمية إن لم يزد عن غيره من الميادين . ذلك هو ميدان الإنسان نفسه ، لامن حيث تركيبه البيولوجى أو الفسيولوجى ، ولكن ماوراء ذلك من أعماق « غيبية » تكمن فيها أسرارٌ لاحدَّ لها ، وبدون الوصول إلى هذه الأعماق يبقى كثير من الظواهر البيولوجية والفسيولوجية نفسها ألغازًا غامضة تثير عديدًا من الأسئلة التى لاتظفر بجواب .

يقول الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل فى الطب والجراحة ، والعالم

لمتخصص فى بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء :

« من الواضح أن جميع ماحققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت فى الغالب معرفة بدائية . والواقع أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنة غير معروفة » [1] .

ولنأخذ مثلا نبدأ به مناقشة هذا الموضوع .

هذه « النطفة » التى تحتوى على جرثومة الحياة نقطة « البروتوبلازم » التى لاتكاد تُرى والتى تتكون منها خلية الأجسام الحيوانية والنباتية ...

إن هذه النطفة الحية يتضاعف تكوينها الداخلى ، ولها القدرة على الانقسام والتعدد أضعافًا مضاعفة إلى ملايين الملايين ، ومنها تتكون خلايا الكائن الحى من الإنسان والحيوان والنبات . فكيف يتم هذا « التنويع » مع وحدة التكوين ، فتصير هذه الخلايا إنسانًا ، وتصير تلك الخلايا غزالا ، أو تصير مجموعة من الخلايا شجرة برتقال ؟

وهذه الخلايا التى يتكون منها جسم الانسان ، كيف يتحول بعضُها إلى أذنين ، والبعض الآخر إلى قلب أو رئة أو لسان ؟

أسئلة لايجد لها العلم حتى الآن أى جواب .

ولكنها تؤكد فى الوقت نفسه « حقيقة » لاتقبل الإنكار ، هى أنَّ وراء هذه الحركة البيولوجية تدبيرًا محكمًا أعطى هذه « النطفة » خصائص التكاثر والتشكل فى دقة معجزة وقصد عجيب .

---

(١) كتاب « الإنسان ذلك المجهول » تأليف الكسيس كاريل ترجمة شفيق أسعد فريد .

ولقد وصل العلم إلى أبعد من هذه الأعماق فى تكوين الإنسان وغيره من الكائنات الحية . فهذه « الخلية » تحتوى على عناصر عجيبة هى : الكروموزومات ، والجينات ، والسيتوبلازم . والجينات هى وحدات الوراثة التى تحمل الخصائص الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها لجميع المخلوقات البشرية على ظهر الأرض جيلا بعد جيل . ولجميع الكائنات الحية من نبات وحيوان ...

فمن الذى أودع الخلية هذه « الجينات » التى تحفظ لكل كائن حَى خصائصَه الوراثية على تعاقب القرون والأجيال ؟ ..

سؤال آخر لايملك له العلم جوابًا حتى الآن .

ولكنه يؤكد كذلك « حقيقةً » لاتقبل الإنكار ، هى أن وراء هذا التكوين العجيب للخلية الحية تدبيرًا محكمًا أعطى هذه « الجينات » القدرة على حمل الخصائص الوراثية لكل كائن فى هذه الحياة .

جواب واحد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة يبدد الحيرة ، ويلتقى عنده العلماء والذين يؤمنون بالغيب :

(قَالَ : رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)[1] .

وهذه الآفاقُ الواسعة ذات الأعماق البعيدة للنفس البشرية ، فى قدرتها على الإحساس والإلهام والكشف والاتصال والأحلام التى تتحقق مثل فلقِ الصبح .

وهذه الموجاتُ المغنطيسية التى يستقبلها المخ حين يكون مُركزا على نَحوٍ ما ، فيتم عن طريقها انتقال الصورة أو الكلمة بين شخص وآخر .

---

(١) الآية ٥٠ سورة طه .

إنها ظواهر من عوالم النفس الإنسانية ، تضاف إلى غيرها من عجائب تكوين الإنسان . وكلها تردد أصداء قوله تعالى :

(وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟) [1] .

* * *

ولكن ماالذى انحرف بالعلم عن البحث فى الجانب النفسى والباطنى للإنسان ، بالقدر الذى اتجهت إليه الجهودُ للبحث عن الجوانب المادية فى الحياة ؟ .

إن هذا الاتجاه الذى أخَلَّ بالتوازن العلمى فى تقييم الحياة الإنسانية جاء نتيجة للنظريات التى اعتبرت الإنسان آلةً جسدية قِوَامُها المطالب المادية فحسب ، ومن ثَمَّ فليست حياة الإنسان بما فيها من مُدْرَكَات معنوية إلا انعكاسًا لهذه الحياة المادية !

ولا جدال فى أن للإنسان جانبه المادى ، ولكنه ليس الجانب الوحيد فى حياة الإنسان ، لأن وراءه « الطاقة » ذات الخصائص الروحية ، التى يعتبر هذا الهيكل المادى مظهرًا لها . كما أثبت العلم فى كشوفه التحليلية للمادة ؛ والتى وقف العلم عاجزًا مبهورًا أمام ماوراءها من أعماق وغيوب .

على أن العلم لم ينصرف كُلِّيَّةً عن محاولاته وتجاربه فى مجال الروح الإنسانى ، والكشف عن أعماق النفس البشرية ، حتى فى الفترات التى طغت فيها الفلسفة المادية على العقول ، وكادت تكون السِمَةَ الغالبة للعلم والعلماء .

ومع تقدم العلم الحديث وماأحرزه من انتصارات بعد الوصول إلى أعماق الذرة ، وجد العلماء أنفسَهم وجهًا لوجه أمام الحقائق « الروحية » التى قد لايؤمن

---

(١) الآية ٢١ سورة الذاريات .

بها البعض ولكنهم فى الوقت نفسه لايستطيعون إنكارها . وتحطَّم صنمُ « المادة » الذى كان إلى عهد غير بعيد معبود العلم والعلماء .

وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ العلم سجل فيها العلماء كثيرًا من الحقائق « الغيبية » التى أدت إليها الكشوف العلمية أو النتائج العقلية المبنية على التفكير العلمى . وأهمُّ هذه الحقائق مايتصل بالجانب الروحى فى الإنسان وصلته بالكون والحياة .

قال آينشتين : « إن الإنسان الذى لم يختبر وقفةً من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم . ولم يشعر نحوه بالروحية ، هو حى حكمُه حكمُ الميت . ولُبُّ الديانة عندى أن الذى لاننفذ إليه بمداركنا هو موجود حقًّا متجلٍّ حقًّا ، يطالعنا بالحكمة العليا والجمال الرائع . ولا تحيط عقولنا الكليلة منه إلا بأشكال بدائية كالظلال » .

وقال راسل والاس : « إن الكون المادى ليس إلا مظهرًا للكون الروحانى ، وإن فى الكون الروحانى أنماطًا من العوامل الفعالة من القوى العليا إلى الأرواح الكائنة فى الخلايا الحية » .

وقال ا . كريسى موريسون : « إن التطور الروحى للإنسان هو الآن فى البداية . والنفسُ الإلهى قد بدأ يسيطر فى بطء على عقله المادى . ونحن إذا فكرنا فى الفضاء الذى لايفتأ يمتد أمامنا ، وفى الزمن الذى لابداية له ولانهاية ، وفى الطاقة المحبوسة فى الذرة ، والجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم ، إذا فكرنا فى ذلك أدركنا أننا لانعرف فى الحق إلا القليل » [1] .

---

(١) كتاب « العلم يدعو للإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكى .